استراتيجية الثقافة في العملية التنموية للأمم
من خلال فكر مالك بن نبي رحمه الله

د. فهيمة بن عثمان

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي (الجزائر)

benatmane-fahima@univ-eloued. dz

الملخص: الثقافة (culture) من المفاهيم التي ما زال يكتنفها الغموض في المجتمع الإسلامي، سواء من ناحية التعريف أو الوظيفة، فكثيرا ما نخلطها بالتعليم، فهي من المفاهيم التي لم تحدد بعد في مجتمعنا، لذلك كلما أردنا الحديث عنها أوردنا معها الكلمة باللاتينية، وكأنها عكاز تستند عليه ليفهم معناها.

أعطى مالك بن نبي-رحمه الله- أهمية كبيرة للثقافة من خلال كتاباته، لأهميتها في البناء الحضاري للأمم، وأفردها بكتاب خاص، فعرفها وعمل على تجلية معناها، وبين مفردات المنظومة الثقافية مع بيان أهمية هذه المفردات في تنمية المجتمع، ذلك أن الثقافة هي المحيط والجو الاجتماعي الذي ينشأ فيه أبناء المجتمع، وأسلوب الحياة وطريقة التعامل يؤخذان من المحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الإنسان، فالراعي والطبيب ينشآن في نفس المجتمع فيتصرفان مثل بعضهما البعض اتجاه الأحداث، لأن المجتمع الذي نشآ فيه واحد، لذلك وجدنا في المجتمع الإسلامي الحاكم والرعية في مستوى واحد، يقول عمر بن الخطاب: "إذا أخطأت فقوموني"، فتيجب الرعية: "لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا"، المحيط

الاجتماعي يمد الفرد بالقيم الأخلاقية والذوق الجمالي والمنطق العملي والتوجيه الفني والصناعي، وهي مقومات نهضة الأمم و تحضرها. لذلك لما جاء الإسلام أحدث ثورة ثقافية جديدة، غرست قيما روحية وأخلاقية، وهذبت الذوق العام بقيم جمالية، وشجعت على العمل والسعي والضرب في الأرض والابتعاد عن المسألة ومد اليد، فقامت الحضارة الإسلامية بهذه الثقافة التي صار المجتمع يعيش في جوها، وتحولت إلى أسلوب حياة ومنهج في التعامل.

بيّن مالك بن نبي- رحمه الله- أن وظيفة الثقافة هي خلق اللحمة بين أفراد المجتمع، فيكون الالتزام بين المجتمع وأفراده، حيث يحتوي المجتمع أفراده، ولا يسمح لهم بالخروج عنه، حين يضبط سلوكاتهم وتصرفاتهم، ويشعر الفرد بمسؤوليته اتجاه المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا حدث أن فقد المجتمع سلطته على أبنائه، وفقد الفرد حق النقد هنا تحدث الأزمة الثقافية.

الكلمات المفتاحية: الثقافة؛ التنمية؛ الأمة؛ الفكر؛ ملك بن نبي.

مقدمة

الناظر في فكر مالك بن نبي- رحمه الله- سيلاحظ عناية بالغة أولاها هذا المفكر لمشكلة الثقافة، فلا نكاد نجد كتابا من كتبه يخلو من الحديث المعمق أو الإشارة لمعنى الثقافة، ومفرداتها ووظيفتها وقيمتها في المجتمع وعلاقتها بالنهضة والحضارة. كيف لا ومالك بن نبي يرى أن مشكلة الحضارة في الأساس هي مشكلة الثقافة. والعارف لمفردات المنظومة الثقافية وقيمة كل مفردة ووظيفتها لن يستغرب هذا الطرح بل سيؤيده ويرى صحته، وسيقول ما قال مالك بن نبي بأن أي إخفاق أو تأخر حضاري يسجله مجتمع من المجتمعات يعود بالأساس إلى الإخفاق الثقافي، لذلك فقبل أن يحل المجتمع مشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية يجب أن يتجه إلى حل مشكلاته الثقافية، وهذا ما جعل مالك بن نبي- رحمه الله- يولي الثقافة كل هذا الاهتمام، ويضعها في مكانها الاستراتيجي في مشروعه الهام" مشكلات الحضارة".

إن محور تفكير مالك بن نبي هو مشكلة الحضارة، وإن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في الأساس تفكير في مشكلة الثقافة، لأنها أصل كل تحول حضاري في التاريخ، كما أنه عزا إليها معظم الفاجعات والنكبات التي يصاب بها المجتمع في الميدان الصناعي أو الأخلاقي أو السياسي أو العسكري. " فالفعل الحضاري هو في الأساس فعل ثقافي"[1].

فالمسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعّال يتيح له امتلاك منهج البحث عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الرقي الحضاري المنشود من جهة أخرى"[2]. "

---

[1]. _الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1، ، دار الينابيع للنشر و الإعلام، الجزائر، 1993، ص12

[2]._المرجع نفسه، ص13.

بين مالك بن نبي وظيفة الثقافة في حياة الشعوب، وركز على الثقافة الإسلامية وكان يستمد أدلته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ويعود إلى التاريخ فيدعم آراءه من وقائع المجتمع الإسلامي، وكذا المجتمع العالمي.

بين أن الفرد يأتي إلى الحياة في صورة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله بطابعه الأخلاقي وقواعده وعاداته وتقاليده، كما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه"[3]، فالمجتمع يكيف الفرد يشكله طبقا لأهدافه الخاصة، فيصبغه بثقافته، فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان هذا الفرد واعظا في جمعية أو صحفي أو شاعر أو ناقد أدبي. . الخ، فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي- النقد)

بين أن المجتمع المتحضر يقع فيه كل خطأ في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه، واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن به المسلمين حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة آل عمران110)

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في حديث السفينة:" مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"[4]، فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمنا.

<u>الإشكال</u> الذي تطرحه الدراسة : كيف صوّر مالك بن نبي رحمه الله وظيفة الثقافة في المجتمع؟ ولماذا اعطاها ابن نبي كل هذه المكانة في فكره وفي البناء الحضاري ؟

فما معنى الثقافة؟ ويطرح هذا الاشكال أسئلة فرعية :

_ ما معنى الثقافة من خلال فكر ابن نبي؟ _ كيف لنا كمسلمين أن نوظف ثقافتنا في النهوض الحضاري؟

_ كيف علينا المحافظة على ثقافتنا الإسلامية في زمن العولمة؟

<u>خطة الدراسة</u>

3_"حديث كل مولود. . " رواه البخاري و مسلم

4_"مثل القائم في. . " رواه البخاري و مسلم

المبحث الأول : مفهوم الثقافة في فكر مالك بن نبي

المبحث الثاني: محاور المنظومة الثقافية عند مالك بن نبي رحمه الله.

أولا_ التوجيه الأخلاقي، لتكوين الصلات الاجتماعية

ثانيا: التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام

ثالثا_ المنطق العملي، لتحديد أشكال النشاط العام

رابعا_ الصناعة، أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع

المبحث الثالث : وظيفة الثقافة في فكر مالك بن نبي رحمه الله

تنتهج الدراسة المنهج الاستقرائي، لأنها ستعود إلى فكر مالك بن نبي رحمه الله لتستقصي آراءه في موضوع الثقافة، كما أنها ستعمد إلى تحليل هذه الآراء.

المبحث الأول: مفهوم الثقافة

أولا: المعنى اللغوي للثقافة

اهتم مالك بن نبي كثيرا بمسألة تحديد المصطلح، إذ نجده من خلال كتاباته له منهجا خاصا في التعامل مع المصطلحات، حيث يعرفها لغويا، وتاريخيا واصطلاحا، وفي اللغات العالمية، وهذا ما فعله مع مصطلح الثقافة، الحضارة.

يرى مالك بن نبي أن معالجة موضوع الثقافة يجعلنا أمام مشكلة لغوية تاريخية، فيتساءل من أين جاءت كلمة ثقافة؟ ومنذ متى استخدمت؟5

الثقافة في اللغة: رأى مالك بن نبي أن أول خطوة في تعريف الثقافة هي استشارة القواميس، وهي بعد اطلاعه لا تذكر الكلمة إلا لماما، سواء في ذلك القديمة أو الحديثة، ففي لسان العرب وجد

أن مصطلح الثقافة مأخوذ من ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، وثقف الشيء حذقته، والثقيف هو الحاذق الفطن. 6

ويقول ابن دريد: ثقفت الشيء حذقته، وفي حديث الهجرة :" هو غلام شاب لقن ثقف". 7

أي ذو فطنة وذكاء، والمراد هو ثابت المعرفة بما يحتاج إليه8. ثم يعود مالك بن نبي إلى دوائر المعارف لتعريف مصطلح الثقافة، فيقول أن العلامة فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين،

.[5]_ مالك نبي، مشكلة الثقافة، ط1، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، ، 1984، ص19

.[6]_ ابن منظور، لسان العرب، دط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، ، 1988، ج1، ص13

.[7]_ حديث:"هو غلام. . " رواه البخاري

.[8]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص19

المجلد الثاني : " ثقف يثقف ثقافة : فطن وحذق، وثقف العلم في أسرع مدة أي أسرع أخذه، وثقفه يثقفه ثقفا، غلبه في الحذق، والتثقيف: الحاذق الفطن" ويطلع مالك بن نبي على القواميس الحديثة في تعريفها للثقافة، فيرى تشابه النصوص مما يجعله يستنتج أنها نسخا مكررة نقل بعضها عن بعض.

ثم يعود لابن خلدون فلا يجده يستعمل الكلمة كظاهرة اجتماعية، وان وردت في مقدمته مرة أو مرتين فبمعناها الأدبي9.

يتتبع مالك بن نبي المصطلح تاريخيا، فيصل إلى أنه إذا ما عدنا إلى لغة العصر الأموي والعباسي لا نكاد نجد هذه الكلمة في استعمال المسلمين لا في اللغة الأدبية أو الرسمية الإدارية رغم أن الثقافة العربية كانت آنئذ في أوج ازدهارها10. .

ونتيجة لهذا فالكلمة لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين لأنها مستعارة أو جاءت من أوروبا. 11

لم نجد مصطلح ثقافة في كتابات ابن خلدون لأن فكرة " ثقافة" حديثة جاءتنا من أوروبا، ثم إننا نجد فيما كُتب حديثا في البلاد العربية أن الكتّاب يقرنون دائما "ثقافة" بكلمة**culture**

، مكتوبة بحروف لاتينية، كأنما يبتغون بهذا أن كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع، ومعنى ذلك أن هؤلاء الكتاب يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد. فهي جديدة. 12. وجدت بطريقة التوليد

ويمكن أن نقول أن الفعل ثقف يتصل تاريخه بلغة ما قبل الإسلام، حتى لنراه قد ورد في آية قرآنية : "وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (سورة البقرة 191)

ولكن يبدو أن كلمة (ثقافة) لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين، وهذا ما يفسر لنا أنها بحاجة دائما إلى كلمة أجنبية تقرن بها لتحديد ما يراد منها في الكتب التي تتصدى لهذا الموضوع، أو بعبارة أخرى لا تزال الكلمة في العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة13. **culture**

<u>ثانيا المعنى الاصطلاحي للثقافة</u>

يعرف مالك بن نبي الثقافة فيقول:" هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم -الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي يعيش

.[9]_المرجع نفسه، ص19

.[10]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص20

.[11]_ المرجع نفسه، ص13

.[12]_المرجع نفسه ص24-25

.[13]_ المرجع نفسه، ص25

فيه". 14

فهذا التعريف يضم فلسفة الفرد، حيث تطبع سلوكه، كما تضم فلسفة الجماعة فتنظم أسلوب حياتهم، فسلوك الإنسان وأسلوب حياته وعلاقته بالآخرين هو في الحقيقة نتاج المجتمع الذي ينشأ فيه الإنسان، فهو يستشفها من المحيط الذي يتربى فيه، كما يتنسم الأكسجين.

لذلك فردة الفعل، وتصرفات أبناء المجتمع الواحد تكون متشابهة حتى وإن اختلفت مستوياتهم المادية والعلمية، والطبيب والراعي لهما نفس ردة الفعل والانطباع اتجاه الأحداث والمشاهد والمشاكل التي يواجهونها.

الإنسان حينما يولد في مجتمع معين بالضرورة سيمتص ويصطبغ بما في مجتمعه من روائح وألوان وأصوات وحركات وظلال وأشكال وصور. . كل هذه العناصر تتجمع لتندمج وتذوب في أنفسنا فتطبع شخصيتنا بها، وتكون أساسا لتصرفات وسلوكات أبناء ذلك المجتمع في أخلاقهم وتفكيرهم. . الخ ذلك أن الثقافة هي :" المحيط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياتنا". 15

فالثقافة تمثل بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكريات الدموية الحمراء والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد هو (البلازما)، ليغذي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته ويحمل أفكار (الصفوة) كما يحمل أفكار (العامة)، وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة16.

فالثقافة إذن هي المحيط الفكري والنفسي والاجتماعي الذي يحتضن الوجود الإنساني في المجتمع، ويدعمه بالخبرة المعرفية والسلوكية والأخلاقية والجمالية، فتتشكل في هذا المحيط طباعه، وشخصيته وذوقه وتحكم علاقته بالسنن التي في النفس وفي الآفاق، فالثقافة نظرية في المعرفة ومنهج في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء17.

يرى مالك بن نبي أن الثقافة في صورتها الحية هي وحدة ذات أجزاء متماسكة، ومترابطة فيما بينها بروابط داخلية تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه وأذواقه وتاريخه. والروابط هذه هي التي تضع على الثقافة طابعها الخاص، فتضع طابعا خاصا لأسلوب الحياة في المجتمع ولسلوك الأفراد فيه، بمعنى أنها تحدد كل الميزات الإنسانية والتاريخية الخاصة بتلك الثقافة18.

الفرد منذ ولادته غارق في عالم من الأفكار والأشياء التي يعيش معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه ويصحو، والصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية، تكوّن في الحقيقة إطارنا

.[14]_المرجع نفسه، ص74

.[15]_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ض78

.[16]_ المصدر نفسه، ض78

.[17]_ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص14

.[18]_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ط3، دار الفكر، دمشق، 1969 ص153

الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه روحنا بلغة ملغزة 19.

من خلال كل هذه التعريفات التي قدمها مالك بن نبي للثقافة يتبين لنا أن:

_ الكلمة متولدة من لغة أجنبية، وأنها تُكتسب منذ الولادة من الوسط الذي يولد فيه الإنسان، فهي محيط نفسي وفكري واجتماعي ينشأ فيه أبناء المجتمع الواحد، فهي عنصر الجمع بين أفراد المجتمع، وهي بمثابة اللحمة، هذه الثقافة تكسبنا أسلوب الحياة، وكطريقة التعامل مع الآخرين.

_ الثقافة هي الوسط الذي يعيش فيه المتعلم وغير المتعلم، فهي تمدهم بأسلوب مشترك في التصرف والتعامل وأسلوب الحياة، فتكون مواقفهم من ا أحداث متشابه، فهي عنصر توحيد لأبناء المجتمع الواحد، في الأذواق والأخلاق والتاريخ.

_الثقافة عنصر أمان المجتمع، يضمن خصوصيته بين باقي الشعوب.

المبحث الثاني : مفردات المنظومة الثقافية عند مالك بن نبي

لما كان للثقافة الموقع الاستراتيجي في حركة التجديد والبناء لأنها تشكل طباع الإنسان وأخلاقه وأذواقه، ومنهج سلوكه ومنهجية عمله. فقد وضع لها الأستاذ ابن نبي رحمه الله محاورا إذا ما استوفت أتت أكلها في بناء الإنسان وإعداده، وبذلك يكون المجتمع قادرا على النهوض والتطلع إلى الحضارة، والمحاور التي حددها ابن نبي للثقافة هي :

1_ التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية

2_ التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام

3_ المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام

4_ الصناعة، أوالفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع20.

أولا: المبدأ الأخلاقي:

المبدأ الأخلاقي، أو منظومة العالم السلوكي كما يسمها الأستاذ الطيب برغوث، والمقصود بها الارتقاء بالسلوك الإنساني الفردي والجماعي إلى قمم "الإحسان"، حيث تتناغم خطى الإنسان : الفرد والجماعة والأمة مع سنن الآفاق وسنن الأنفس وسنن الهداية21.

غريزة التجمع أو الحياة الجماعية ثابتة عند الإنسان، والمجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويوظفها بروح خلقي سام، حتى لا يكون كالحيوان، وحتى يتجنب المجتمع الفوضى واللا نظام، ولما كان لهذا العنصر من أهمية فقد كان منحة من السماء إلى الأرض، يأتي مع الرسالات عند ميلاد

---

[19]_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص55.

[20]_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص132.

[21]_ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص23.

الحضارات، ومهمته كما يقول ابن نبي :" هي ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيم" (الأنفال 63)، فالروح الدينية هي التي تجمع بين العناصر المتفرقة كما جمع الإسلام بين الأنصار والمهاجرين، إلى درجة أن يقول الواحد منهم لأخيه اختر أي النساء من زوجاته22.

والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة، وقد جاء رسولنا صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، فيعلوا بها ويسموا إلى درجة يتميز فيها الإنسان عن غيره من المخلوقات التي تأتي ردات فعلها وفقا لغريزتها، والله تعالى يثني على نبيه صلى الله عليه وسلم بفضيلة الأخلاق رغم وجود فضائل لا تحصى خص بها الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : " وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ " (القلم4)، إن ابن نبي يولي اهتماما كبيرا لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد فيقول:" إن الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة"23.

إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة وهو الإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل و إنتاج، فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع، ودو افعه وغاياته.

ثانيا: الذوق الجمالي:

الذوق عبارة عن آداب السلوك التي تقتضي معرفة ما هو لائق أو مناسب في موقف اجتماعي معين، فالإنسان إذا كان ذا معرفة بالتصرف المناسب لكل موقف، ولم يخرج عن الأدب والعرف يكون صاحب ذوق.

الجمال في اللغة الحسن في الخَّلق والخُلق، وجمُل ككرم، فهو جميل كأمير، أي أن الجمال هو كل شيء مبهج يتجلى في الطبع والسجية والحياء والأخلاق، وكلها صفات يحملها الإنسان، وكما أنه يكون في كل ما هو مرتب ومنسجم ومتناسق يبعث الإثارة في النفس، والجمال في اللغة يتسم بالرقة والحسن والبهاء، وينبئ عن الخلق الحسن والفعل الحسن24. وقال ابن فارس: عظم الخلق وحسنه، والجمال معانيه تدور حول الحسن والنظرة والزينة25.

وعُرّف أيضا بأنه الاستجابة الوجدانية لمؤثرات الجمال الخارجية، وهو اهتزاز الشعور في المواقف التي تكون فيها العلاقات الجمالية على مستوى رفيع فيتحرك لها وجدان الإنسان بالمتعة والارتياح 26.

فالجمال هو كل ما يعجب الإنسان ويستحسنه ويستسيغه، وتأنس إليه الروح وترتاح له، ويحرك

.[22]_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص79

.[23]_ مالك بن نبي، شروط المهضة، ص124

.[24]_عبد الله بن محمد العمرو، معايير الجمال في الرؤيتين الإسلامية و الغربية، مجلة العلوم الشرعية، العدد38، ص7

.[25]_المرجع نفسه، ص7

.[26]_محمد البسيوني، التربية و الذوق الجمالي، دط، دار المعارف العلمية، القاهرة، 1986، ص49

شعورها النفسي ويصل إلى الروح وتتقبله النفس وتطمئن إليه، كالمناظر الطبيعية أو الأحاديث، أو الحركات، أو التصرفات أو المناظر في المحيط الذي يعيش فيه الإنسان أو في الشارع أو البيت. . الخ

إن الأفكار في فكر مالك بن نبي هي المحور الأساسي في بناء الحضارة، ولذلك كان للأفكار الحية البناءة ألا تنتج إلا في وسط منظم فيه من من مسحة الجمال والذوق ما فيه، فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه، وكما يقول ابن نبي :" لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال أو بالأفكار الكبيرة، فان لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح" 27.

فالأفكار تنسج عليها الأعمال، والأفكار تولد من الصور المشاهدة في محيط الإنسان، وإطاره الاجتماعي، والجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن، لذلك يقرر مالك بن نبي أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أيه حضارة 28.

ونظرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ستكشف لنا عن اهتمامهما بالذوق الجمالي والنظام وطهارة النفس والجسم والثياب والمحيط وإماطة الأذى عن الطريق والكلام الطيب. . هي نماذج هذا النزوع الإسلامي لتربية الذوق الجمالي وغرسه في الشخصية الإسلامية.

إن دور الأشياء الجميلة هو الإيحاء والخيال الجميل، لأن الأفكار تتولد من الوسط الاجتماعي، فالجمال الموجود في الوسط من أصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان بالأفكار، وتدعوه للاحسان في العمل، فضلا عن ذلك الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، ذلك أن الحضارة لا تتكون إلا في إطار الجمال29.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الجمال فانه علينا أن نتمثله في بيوتنا وشوارعنا ومقاهينا، وبذلك يثيرنا أي نشاز في الأصوات أو الألوان. . قال صلى الله عليه وسلم:"ا ن الله جميل يحب الجمال"30.

وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فان للذوق الجمالي كذلك دور فيها لذا تتداخل فيها اعتبارات الشكلية، من خلال الأحاديث النبوية نلمس مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلا حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه بقوله:" ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. . " 31. ونلمسه كذلك في قوله للذي أحدث ما ينقض الوضوء في مجلسه :" من أكل لحم

.[27]_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 81

.[28]_ المرجع نفسه، 85

.[29]_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص78

.[30]_ حديث:" ان الله جميل. . " روا أحمد

.[31]_ حديث:" مابال أقوام. . " روا البيهقي

جزور فليتوضأ"32.

يظهر اهتمام الإسلام بالذوق الجمالي من خلال حثه على :

_ طهارة البدن وجمال القلب والمعاملة : الذوق الجمالي جلي في ثقافتنا الإسلامية، سواء من خلال تتبعنا لما جاء في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، حر ص الإسلام على وجود الذوق الجمالي في كل حياتنا فنتحرك ونعيش في جو من الجمال داخل بيوتنا وفي الطبيعة وأسلوب حديثنا وأصواتنا وأبداننا وروائحنا، فيعيش المسلم في جو كله نظام وترتيب وذوق.

ترتبط أغلب العبادات في الإسلام بالطهارة، فلا تصح الصلاة مثلا بلا غسل أو وضوء، والطهارة ترمز إلى الجمال والنظافة في البدن والرائحة الطيبة التي تتحقق بفضلهما، وبما أن الصلاة خمس مرات في اليوم موزعة على أوقات عديدة فان المسلم يكون دائما على طهارة ونظافة، ولا يخفى على أحد أن طهارة البدن لها انعكاس حسن على نفسية الفرد حيث يشعر بالارتياح والحيوية والنشاط.

الوضوء ليس مجرد تنظيف للأعضاء الظاهرة فحسب وليس مجرد تطهير للجسد يتوالى عدة مرات في اليوم، بل إنه يؤثر نفسيا في السمو الروحي الذي يشعر به المسلم بعد الوضوء33. .

كما ارتبطت الصلاة كذلك بنظافة وطهارة المكان، والتحرز من كل نجس لذا يحرس المسلم على نظافة بيته من كل الأوساخ، فيعيش في بيت نظيف ومرتب، ولا شك أن نظافة المكان تبعث في الروح الإحساس بالجمال والنقاء وارتياح النفسية. وقد شدد الإسلام في مسألة التحرز من النجاسات، وإلا تكون العقوبة العذاب في القبر.

وارتبطت الصلاة بالمساجد بالتطيب ولبس أجمل الثياب وسن لها البياض على وجه الخصوص، مع تجنب كل أنواع الأكل التي ترتبط بالروائح غير الطيبة كالبصل والثوم، فمن احترام الفرد للمجتمع أن لا يأكل هذه المأكولات وهو متوجه للقاء الجماعة، وقد حرس النبي صلى الله عليه وسلم على السواك لأنه مطهرة للفم، وقال :" لولَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتهمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ". 34

_ جمال القلب (الجانب الروحي):

يرتبط جمال المسلم بجمال روحه وتطهيرها من كل أمراض القلوب، لتكون نفسه شفافة ناصعة بعيدة عن الحقد والحسد والغل، كما ارتبط المسلم في علاقاته بإخوانه بجميل الأخلاق، حيث يلقاهم بوجه طلق والابتسامة والسلام والكلمة الطيبة، حتى في النصح لا يجرح مشاعرهم فينبه بأسلوب ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.

المسلم جميل في نيته، فالنية الحسنة لها الأجر والثواب، ويحرص الإسلام على أن يعيش المسلم

.[32]_ حديث:" من أكل لحم جزور. . " روا أحمد

.[33]_ محمد بن ابراهيم محمد، عناية الاسلام بالصحة و النظافة، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1436ه، 47

.-[34]_ حديث " لولا أن أشق. . . " أخرجه البخاري و مسلم

بقلب نقي سليم وأن لا يبيت الإنسان الحقد في قلبه اتجاه إخوانه من المسلمين، وأن لا يتمنى الشر للناس ولا يحسدهم ويتمنى زوال نعم الله عليهم، ولا يحمل لهم البغض والكره. ذلك أن أمراض القلوب خطيرة على الإنسان، وتعكر صفو حياته ومزاجه وصحته، لذلك لم يُرد الإسلام للمسلم أن يفكر في الانتقام ورد السيئة بالسيئة، بل حثه على العفو قال تعالى :" وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"(آل عمران 3)، ويقول أيضا: "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت 35)

_ جمال الأخلاق والتعامل مع الناس:

وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فان الذوق الجمالي له دور فيها لذا تتداخل فيها الاعتبارات الشكلية، من خلال الأحاديث النبوية نلمس مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلا حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه نجده يقول:" ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا"35، ونلمسه كذلك في قوله للصحابة: "من أكل لحم جزور فليتوضأ"36

حيث أمر الجميع بالوضوء لكي لا يحرج الذي أحدث، فحتى تعاملاتنا مع الناس يجب أن لا يكون فيها إحراج وأذى. وينبه النبي صلى الله عليه وسلم بستر الصدقة حيث لا تعلم اليد اليمين ما أنفقت اليد الشمال، ليرفع الحرج عن الفقراء ويحافظ على مشاعرهم وكرامتهم.

حتى في النصيحة لم يكن رسول الله صلى الله عليه ويسلم يجرح مشاعر الناس، كان ينبه بأسلوب، ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، كل ذلك لرفع الحرج عن المسلم وكذا الابتعاد عن التشهير بالناس لأنه ليس من الإسلام، الذي يدعو إلى الستر، وكان صلى الله عليه وسلم حريص على حفظ ماء الوجه لأصحابه وعدم إحراجهم.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يدرك ما للجمال من أثر في النفسيات حين نراعيه، وماله من دور في ربط الصلات حين نلتزمه في تعاملاتنا37.

يأمرنا الإسلام باللين في التعامل، فما كان اللين في شيء إلا زانه وما نقص من شيء إلا شانه، حتى الدعوة إلى الله نراعي فيها الحكمة والموعظة الحسنة، والابتعاد عن التعنيف والتجريح، وقد بين القرآن الكريم سبب محبة الناس للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران159)

وقد مدح القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم 4)، لذا

.-35_ حديث " ما بال أقوام. . . " رواه البيهقي

.-36_ حديث " من أكل لحم. . . " رواه أحمد

.-37_ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص12

الإنسان المسلم يطلب منه جميل الخلق، وهو باب واسع للدعوة إلى الاسلام، وبينت تعاليم الإسلام كثيرا من التصرفات إذا التزم المسلم بها تعم المحبة في المجتمع، كإفشاء السلام، والابتسامة. السلام يزرع المحبة وكذلك لقاء الإخوان بالابتسامة، ليس من الذوق أن نلقى الأقارب والجيران والأصدقاء والإخوان بوجع عبوس ومكشر، الابتسامة لها رونق وجمال، وتعابير تضفي على وجه صاحبها الراحة والسرور، والقبول من طرف الآخرين، وقد رتب عليها النبي صلى الله عليه وسلم أجراً عظيماً، فقال صلى الله عليه وسلم: "وتبسمك في وجه أخيك صدقة"38، ومعنى الحديث، أنّ إِظْهَارَك الْبَشَاشَةَ إِذَا لَقِيت أخاك المسلم، تُؤْجَرُ عَلَيْهِ كَمَا تُؤْجَرُ عَلَى الصَّدَقَة.

حث الإسلام على ضرورة رد الإحسان بالإحسان قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (الرحمن 60)وهذه الآية تحث على رد الجميل والاعتراف به لأنه يديم المحبة بين الناس،

يحث الإسلام على جمال العلاقات، وجميل الأخلاق حيث يلقاهم بوجه طلق وابتسامة والسلام والكلمة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة في الإسلام صدقة، وهي سبب عظيم في تطييب قلوب الناس، وإدخال السرور على قلوبهم.

ونهى الإسلام عن صفات سيئة تفسد جمال العلاقات والأخوة بين الناس كالتجسس والتنابز بالألقاب والغيبة وسوء الظن والغيبة.

من جمال العلاقات بين الناس التعاون " إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"39 الإحسان والأمان، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يوصي بالجار، وشدد في المسألة حين قال :" والله لا يؤمن. . من لا يأمن جاره بوائقه"40، وليس معنى هذا أن المسلم معصوم عن الخطأ، بل المسلم يسارع إلى طلب الصفح وتصحيح خطئه إذا أخطأ، فهذا أحد الصحابة ينادي بلال رضي الله عنه بابن السوداء" فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:" إنك امرؤ فيك جاهلية "41، وسرعان ما يشعر بخطئه ويسارع لطلب العفو.

يربى الإسلام الفرد المسلم على الانشغال بالنفس ومن خلال غض البصر وصرفه عن المحرمات، وخفض الصوت، لأن الأصوات المرتفعة تثير الانزعاج في النفوس والنشاز، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾(الحجرات 2)، وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان 3)، وقد قال الشيخ العثيمين أنه يدخل في خفض الصوت أصوات المزامير والغناء الذي يؤذي الجيرانi، وأيضا من الذوق أن لا يتسكع الناس في الشوارع بل يقصدون في مشيتهم ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ (لقمان 3) وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس في الطرقات لما

.-38_ حديث " ابتسامة. . . " أخرجه الترمذي

.-39_ حديث "*ان الله في عون*. . . "رواه مسلم

.-40_ حديث ". . *من لا يأمن جاره بوائقه*. . . "رواه الشيخان

.-41_ حديث "انك امرؤ فيك جاهلية. . . "رواه البخاري

فيه من إيذاء المارة، وعدم غض البصر.

للحفاظ على جمال العلاقات ورفعا للحرج شرّع الإسلام الاستئذان وحث عليه داخل البيت الواحد، وخاصة في أوقات العورات حيث يضع الناس ثيابهم، حيث نجد في الإسلام آداب الدخول على بعضنا البعض في البيت، حتى لا نرى بعضنا البعض في هيئات لا نحبها، وتوسع الاستئذان لإعلام الغير بالقدوم والزيارة، حتى في دخول الرجل على أهله بعد العودة من السفر حث النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل على أهله ليلا، لتتمكن زوجته من الاستعداد لاستقباله بالاغتسال والتطيب ومشط الشعر.

_ جمال البيئة والوسط التي نعيش فيها:

خلق الله تعالى هذا الكون جميلا، واستخلف فيه الإنسان، وسخر له كل ما في الطبيعة، وركب فيه الإحساس داخليا تذوق هذا الجمال والارتياح له، فأينما نولي وجوهنا نرى جمال الكون في السماء في البحار في الحقول في الفصول، في أنفسنا، في عالم الحيوان، ووجب على الإنسان عدم إفساد هذا الجمال، وعدم العبث في الطبيعة.

لذا يحرص على البيئة النظيفة لأنها مسخرة له، وفيها يجد راحته، ليعيش فيها في جو صحي نظيف، لذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على غرس الأشجار فقال: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تَقوم حتى يَغرِسَها، فليَغرِسْها" 42، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على إماطة الأذى عن الطريق فقال: "وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ"43

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف الأفنية، ونهى صلى الله عليه وسلم عن التبول في الطرقات وأماكن الظل تحت الأشجار وموارد الماء. حفاظا على الطبيعة جميلة، يرتاح فيها الإنسان وينعم بخيراتها، وبظلها وبمائها.

ومن خلال كل هذا الحديث عن الجمال في ثقافتنا الإسلامية ندرك أن الذوق الجمالي مهم جدا في ديننا وحضارتنا الإسلامية، ولا يمكن أن تقوم حضارة في ظل الفوضى واللا نظام والأوساخ، لذلك كان مالك بن نبي يرى أن الطفل إن كان فقيرا، يجب أن لا نجمع عليه الفقر والوسخ، لأن هذا الوسخ يسلب الطفل كرامته وصحته.

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يدرك ما للجمال من أثر في النفسيات وماله من دور في ربط الصلات44.

ثالثا: المنطق العملي:

ويقصد به معرفة العمل وتحديد مقاصده ووسائله، حتى لا يقع المجتمع في استسهال الصعب،

42-_ حديث "إذا قامت الساعة. . . "رواه البخاري

43-_ حديث "و تميط الأذى. . . "رواه مسلم

44._ مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دت، ص73-74

واستصعاب السهل، دون مقياس وتقدير، مستمد من الوسط الاجتماعي وما له من إمكانيات وقدرات، فبالمنطق العملي يستخرج المجتمع من الوسائل المتاحة له أقصى ما يمكن من الفائدة والمحصول، فإذا غاب المنطق العملي من المجتمع ضيعت الثروات، وبددت الطاقات والإمكانيات في مشاريع لا تقدر الأمور بقدرها، ولا ترسم الأهداف لأعمالها، فتكون محاولاتهم هازلة، والسبب كما يقول مالك بن نبي:" افتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق" 45.

فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

يرى مالك بن نبي أن الوقت الذي يبني الحضارة إلى جانب الإنسان والتراب، وساعات العمل والتي عبر عنها "بالوقت في معادلة الحضارة" أو الدقائق المنتجة، والساعات التي تصبح تاريخا، لأن ساعات الفراغ تتحول إلى عدم، وهذا ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله:" إنما هي أعمالكم ترد إليكم" 46.

إذن الساعات إذا استغلها المجتمع ستتحول إلى إنتاج وثروة، أما إذا لم تستغل فإنها ستتحول إلى ساعات هاربة، ووقت ينتهي إلى العدم، وكما يقول ابن نبي:" فإن الزمن نهر قديم يعبر العالم ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي تعيش فيها كل الشعوب، والحقل الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا وهناك قد تصير عدما إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها" 47.

إن هذا المعنى هو الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما من يوم يطلع ينشق فجره إلا وينادي منادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة 48".

إن الحديث عن توجيه العمل في العالم الإسلامي المتخلف هو حديث عن توجيه شيء منعدم تقريبا لأن أغلب ساعاتنا تتحول إلى عدم لخلائها من الإنتاج، بل جل وقت العالم الإسلامي هو ساعات فراغ49.

فالحديث عن توجيه العمل هو حديث عن تربية الأفراد عن العمل، والبذل والفعالية، وقد تعلم المسلمون هذه الفعالية حين كانوا يشيدون أول مسجد. إن توجيه العمل يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي يخطه المجتمع لنفسه، فيساهم في كل أفراد المجتمع في البناء، المهندس والراعي والمرأة والفلاح. . 50.

.[45]_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 86

.[46]_ حديث :" انما هي أعمالكم. . . "رواه مسلم

.[47]_ مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، دط، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006، ، ص68، و شروط النهضة ص211_212

.[48]_ مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، ص68، و شروط النهضة ص211_212

.[49]_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص161-212

.[50]_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص163

إنه على قدر ما تكون في المجتمع صناعات وحرف وفنون تتجه أحوال معيشة الأفراد إلى التحسن، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على لمبادرة إلى الأعمال قبل فوات الأوان، ويحث على عدم تأجيل الانجازات حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من كانت بيده غرسة يريد غرسها وقامت الساعة فليغرسها"51. " فهذه النصيحة لمن يتولى الغرس من المسلمين يجب أن نتأملها ويستفيد منها كل مسلم، حتى في ظرف غير يسير أو أن الساعة قد حلت" 52.

إن هذا الحديث يدع إلى المبادرة، وأن يكون الإنسان فعالا يؤدي نشاطه على أكمل وجه، فتعليم الناس عمل، وإزالة الأذى عن الطريق عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات الفراغ عمل. . وهكذا لا يكون في الأمة كسول ولا اتكالي يعيش عبئا على من يتولاه سواء فردا أو مجتمعا وربما هذا ما عبرت عنه الآية حين قررت وجود إنسانين، أحدهما كَل سلبي والآخر فعّال وايجابي نشيط، إذا ما توجه إلى عمل أداه على أحسن وجه، وكان بإمكانه استعمال وسائله الأولية واستخراج ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج، فلنعم المال الصالح للرجل الصالح، قال تعالى :" ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾النحل 76) 53.

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا للرجل الفعال المعتمد على نفسه في شخص نبي الله داوود عليه السلام حين قال:" ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده"54.

كما يقصد مالك بن نبي رحمه الله بالمنطق العملي روح المسئولية والإحساس بالواجب والقيام به دون توان، قبل المطالبة بالحق، لأنه متضمن في الواجب وتابع له55. . ذلك أن الإقلاع الحضاري مرتبط بوضع نفسي واجتماعي، تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة، بل وتتفوق عليها من جهة، بل وتتفوق عليه من جهة أخرى، وأي إخلال بهذه المعادلة يؤدي حتما إلى إرباك عملية البناء وارتكاسها، فالواجب الفائض هو أمارة على التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه نحو ا المجد56.

ولهذا فان السياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بالتوقيع على وتر الحقوق، ليست سياسة، وإنما هي خرافة وتلصص، فالواجب الدائم هو أن نعلم المجتمع المناهج التي يشق بها الطريق قدما نحو أهدافه، عبر إتقان القيام بالواجب 57.

.[51]_ حديث " من كانت بيده. . " رواه أحمد

.[52]_ مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، ص128

.[53]_جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا و حين يكون عدلا، الجزائر، المطبعة العربية، ط1، 1990، ص6-7-9

.[54]_حديث:" ما أكل أحد. . " رواه البخاري

.[55]_الطيب برغوث، ص26

.[56]_المرجع نفسه، ص26

.[57]_مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص161-162

وبرمجة حركة المجتمع على محور الواجبات لا تتأتى إلا بتحويل عميق لعادات وطبائع الناس58. ، أي تحويل ثقافي شامل، تنجزه جهات كثيرة في المجتمع.

يحث مالك بن نبي على استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة، مهما كانت بساطتها وقلتها، لأن التاريخ في نظره يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل دقيقة، بكل ساعة، لا في معناها المعقد، كما يعمد إلى تعقيده بعض الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة، بعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة، لذا يرى أن حياتنا اليومية تعاني من "اللا فاعلية "، إذ يذهب جزء كبير من أعمالنا في العبث والمحاولات الهائلة، بسبب افتقادنا الضابط الذي يربط في حركتنا بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها 59.

تحدث مالك بن نبي كثيرا عن مظاهر اللا فاعلية في المجتمع الإسلامي، فيرى أنه لا يلزمنا ملاحظة طويلة لنرى أن المنطق العملي ينقص في مجتمعنا الإسلامي، لأن عجز الأفكار يخلق وينتج في المجال النفسي عجزا في المراقبة الذاتية، وعجزا في مراجعة النتائج، ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية ونتائجها من ناحية أخرى، ومفهوم المحصول لا وجود له في ثقافتنا60.

حث الإسلام على العمل، ورغب في الأكل من عرق الجبين، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن لا نحتقر الأعمال فقال: "والذي نفسي بيدِه، لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتطبَ على ظهرِه خيرٌ له من أن يأتيَ رجلًا أعطاه اللهُ من فضلِه، فيسألَه أعطاه أو منعه"61. فالمهم أن يكون الإنسان فعالا، معتمدا على نفسه، فلا يكون كلا متكلا متواكلا، وفي الإسلام العمل عبادة.

لذا لابد من توجيه الجهود، والتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية،

هذا الجهاز (الإنسان – السواعد المنتجة) حين يتحرك يتحرك التاريخ، نحو الهدف المنشود، وهنا تكمن فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية لمهمتها، فليس المهم أن ننتج أفكارا فقط، بل يجب أن نوجهها طبقا لأهداف المجتمع62.

رابعا: التوجيه الفني أو الصناعة:

ويقصد بها تحويل العلوم النظرية إلى فنون ومهن، واستغلال كل الطاقات والقدرات في العمل

---

[58]_مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، ص108.

[59]_مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990 ص78-147.

[60]_مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، 59.

[61]_حديث " والذي نفسي. " رواه البخاري.

[62]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص67.

الصناعي المثمر، لأن الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم، ولكنها بالنسبة للمجتمع كما يقول مالك بن نبي: "وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه"63.

ذلك أنه إذا كان لمجتمع قيما أخلاقية تحافظ على علاقة أفراد المجتمع فيما بينهم _ شبكة العلاقات الاجتماعية _ وإذا ما تكوّن للمجتمع ذوق جمالي فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام والروائح والأشكال، وأصبح لأفراده منطقا عمليا يستغلون به كل الطاقات والإمكانيات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل المتاحة، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تُحل فيه مشكلة الحضارة، فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

وقد سمى الأستاذ الطيب برغوث هذا التوجيه الفني والصناعي بعالم الخبرات الانجازين، وهو كل ما يساعد الفرد والمجتمع من الخبرات التسييرية الإدارية والاتصالية والفنية والتقنية. لتحسين أدائها الاجتماعي، ورفع مستوى استفادتها من الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة64.

أكد مالك بن نبي على ضرورة العناية بتدعيم منظومة الخبرات الانجازين التي تساهم بقسط وافر في تسريع الحركة التاريخية، واختزال الزمن وتوفير الجهد والوقت65.

المبحث الثالث: دور الثقافة

تأتي الطبيعة بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله بطابعه الأخلاقي، وقواعده وعاداته وتقاليده، كما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:" كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"66. فالمجتمع يكيّف الفرد يشكله طبقا لأهدافه الخاصة ويصبغه بثقافته67. فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان الفرد واعظا في جمعية أو صحفي أو شاعر أو ناقد أدبي. . فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي – النقد) 68.

إن المجتمع المتحضر يقع كل خطأ فيه في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن الكريم به حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

.[63]_حديث:" ما من يوم ينشق. . " لم أجده في الكتب الحديثية

.[64]_ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص26

.[65]_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص148

.[66]_حديث:" كل مولود. . " رواه البخاري و مسلم

.[67]_مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص115-116

.[68]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص84

(آل عمران 110).

الالتزام بين الفرد والمجتمع علامة صحة وتحضر للمجتمع، فالمجتمع يحتوي أفراده، ولا يسمح لهم بالخروج عن أهدافه، فإذا لم يعد المجتمع قادرا على السيطرة على أبنائه بكفهم عن ضروب الفساد، وإذا ما صار الفرد لا يهتم بما يحدث في مجتمعه ومحيطه، وفقد حقه أو رغبته في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، هنا تحدث ا أزمة الثقافية، والتي تعني الانفصال بين الفرد والمجتمع.

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في مواضيع عدة منها حديث السفينة :" مثل القائم في حدود الله و الواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و. . . . ونجوا جميعا"[69].

فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمنا، أما موقف الفرد الاستنكاري أو الناقد فقد عبر عنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:" من رأى منكم منكرا فليغيره" 70. "فكل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها وذلك بأن تضع أولا بين الجسم الاجتماعي والفرد ذلك التبادل الذي يقوم على تقويم الأخطاء مهما يكن مصدرها"71.

فدور الثقافة إذا هو خلق اللحمة الاجتماعية، بحيث يصبح فيها الالتزام متبادل بين الفرد والمجتمع، كما في حديث السفينة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمجتمع المتحضر هو الذي لا يسمح أن يكون فيه أي انفصال بينه وبين أفراده، فيفقد السيطرة عليهم وعلى توجيه سلوكهم وفق الهدف الذي يرسمه المجتمع لنفسه.

من أولى واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الأخلاقي والاجتماعي، بما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة. ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع، يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة

ونخلص من ذلك ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

_ سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي

_ ايجابية تصلنا بالحياة الكريمة72.

وقد قامت الحضارة الإسلامية بعملية التجديد من ناحيتها السلبية والايجابية، إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التجديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار

---

[69]_حديث" مثل القائم. . "رواه البخاري و مسلم

[70]_حديث" من رأى منكم منكرا. . "رواه الترمذي

[71]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص46-47

[72]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص71

الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة ايجابية73.

إذا كانت الثقافة هي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، فيكتسب منه أسلوب الحياة وطريقة التعامل، ومنه يكتسب الأخلاق والقيم والأذواق والحرف والفعالية، وجب تنقية هذه الثقافة باستمرار من أي وافد ضار بالفرد والمجتمع.

خاتمة

من خلال البحث في موضوع الثقافة في فكر مالك بن نبي رحمه الله، توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية :

_ الثقافة هي المحيط الذي ينشأ فيه الإنسان، ففي جوها يكتسب أسلوب الحياة، وطريقة التعامل فالثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة.

_ تتكون الثقافة من عدة محاور، المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والنشاطات، والصناعة والفن الملائم لكل مجتمع، إذا ما استوفت هذه المحاور في مجتمع أتت أكلها وحدثت النهضة وأُقيمت الحضارة.

_ ثقافتنا الإسلامية تحث على محاور الثقافة التي دعا إليها مالك بن نبي، فإذا ما وظفناها ثقافتنا الإسلامية واستثمرناها، وعشنا بما تدعو إليه، تتحقق النهضة، فهي تدعونا إلى التزام المبادئ الأخلاقية ومراعاة الذوق الجمالي في كل حياتنا وتحث على العمل والكسب وتعلم الحرف والصناعات.

_ الأخلاق وظيفتها ربط الأفراد بعضهم ببعض، والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة كي يختلف الإنسان عن الحيوانات في تصرفاته وردات فعله.

_ يدعم مالك بن نبي أفكاره بالأمثلة من الثقافة الإسلامية خصوصا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وحياة الصحابة والمجتمع الإسلامي، وأيضا المجتمع العالمي.

_ إن بن نبي يولي اهتماما كبيرا لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد.

_ إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة هو والإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج، فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع، ودوافعه وغاياته.

_ ارتباط الحضارة بالثقافة، الثقافة التي تمد الإنسان بالأخلاق فلا يتصرف بهيمية أو بالغريزة، وتجعل له ذوقا جماليا في اللباس والمحيط وفي كلامه وأسلوب تعامله، وتحثه على العمل وتجعل منه إنسانا فعالا نشيطا يستغل وقته بالحرف والفنون والصناعات، فانه سيقيم حتما حضارة، لكنه إلى إذا انتكس عن الأخلاق وعن الذوق وصار كسولا عالة على غيره خرج من الحضارة وتحول إلى البداوة

.[73]_مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص72

_ قيمة الذوق الجمالي في بناء الحضارة أن الأفكار الحية البناءة ألا تنتج إلا في وسط منظم فيه من من مسحة الجمال والذوق ما فيه، فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه. والجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات وأشكال توحي للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن.

_ وإذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي فان للذوق الجمالي كذلك دور فيها لذا تتداخل فيها اعتبارات الشكلية.

_ فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

_ الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم.

_ الثقافة تضمن خصوصية الشعوب، لذلك تعد عملية تنقية الثقافة وتوجيهها باستمرار أمر مهم، تنقيتها من الوافد الضار، وهذا ما تفعله الحركات الإصلاحية باستمرار.

_ وإذا ما تكوّن للمجتمع ذوق جمالي فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام والروائح والأشكال، وأصبح لأفراده منطقا عمليا يستغلون به كل الطاقات والإمكانيات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل المتاحة، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تُحل فيه مشكلة الحضارة، فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

_ ولا بد من إزالة الخلط بين الثقافة والتعليم، فالثقافة هي فلسفة الإنسان، بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة بوظيفة الإنسان. الثقافة وسط يعيش في ظله الإنسان المتعلم وغير المتعلم.

_ لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة. فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد تاريخه.

_ وتأثير الجمال في الحياة الاجتماعية، أنه لا يمكن تصور الخير منفصلا عن الجمال.

_ الجمال يعني النظام. . الصحة. . جمال المحيط الاجتماعي، إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجوهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام ذاته.

قائمة المصادروالمراجع

1_ ابن منظور، لسان العرب، دط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، 1988

2_ مالك نبي، مشكلة الثقافة، ط1، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، 1984

3_ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986

4_ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 199

.5_ مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990
6_ مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990
.7_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ط3، دار الفكر، دمشق، 1969
8_ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه ، دط، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006
.9_ مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دت
10_ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986
11_ جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا، الجزائر، المطبعة العربية، ط1، 1990
12_ الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1، .دار الينابيع للنشر والإعلام، الجزائر، 1993
13_ محمد بن ابراهيم محمد، عناية الاسلام بالصحة والنظافة، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية .السعودية، 1436هـ
.14_ محمد البسيوني، التربية والذوق الجمالي، دط، دار المعارف العلمية، القاهرة، 1986
15_ عبد الله بن محمد العمرو، معايير الجمال في الرؤيتين الإسلامية والغربية، مجلة العلوم الشرعية، العدد38.